

ندوة حول كتاب حرب لبنان 1975 – 1990

مداخلة د. نادر سراج

لا يُحسد الزميل والأستاذ الجامعي د. عبد الرؤوف سنو على المهمة البحثية، شبه المستحيلة، التي نُدب لها نفسه. وما هو يقدم عصارته إلى قراء العربية في 1808 صفحات تتوزع على مجلدين. فأفلح في تجاوز الحساسيات المتوقعة، وترفع عن الغوص في زوايب السياسة اللبنانية، متسلحاً بمنهجية علمية. ولم يكتفِ بالتجميع والتصنيف والسرد، بل نَقب في سطور الكراسات ومتون الوثائق، واستقرأ أرقام الإحصاءات بعين المؤرخ الراصد والمحلل.

أنصرف المؤلف في المجلد الثاني إلى معالجة موضوع التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية. فدرس اللامركزية الاقتصادية والانشطار المناطقي بمختلف وجوهه وتداعياته، وواقع الاقتصاد اللبناني. كما بسّط لنا سيرورات تكيف المواطنين مع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية الطارئة. وتناول الأسرة اللبنانية وانعكاس الحرب على ثقافتها وقيمها. ولاحظ أن الانهيارات شملت قطاع التعليم. الهجرة والتهجير التي تناسلت فصولاً وأفضت إلى وقائع ديموغرافية مستجدة، شكلت إحدى مشاغل المؤلف. ويظهر تفكير الدولة وتقويض المجتمع على أيدي الميليشيات في فصل مركزي مليء بالإحصاءات. وشاء المؤلف أن يكون الأخير مسك الختام، فرصد فيه مبادرات المجتمع المدني لدرء الفتنة وإدارة الحياة المدنية. ويروى لنا بالوقائع والأرقام كيف نشطت جمعيات وهيئات ومنظمات لحمل هموم المواطنين اليومية، بعدما شلت الإدارات الرسمية أو تقاعست عن أداء وظائفها، أو غيّبت عن لعب أدوارها.

بيد أن تحرك المجتمع المدني لم ينحصر فقط في مجالات العمل الخدماتي المحض، بل عبّر في إحدى أشكاله عن النزوع إلى مقاومة تنامي نفوذ الميليشيات. فيعود بنا سنو إلى بواكر هذه المقاومة مطلع الحرب، ويتوقف ملياً عند دعوة إيمان خليفة في نيسان 1984 إلى الانتفاض على الميليشيات والمطالبة بالدولة. ولكن الحلم أحمَد في مهده على أيدي الميليشيات التي قصفت منطقة المتحف من الجهتين مساء الخامس من أيار 1984، وأجهضت بذلك خطة التحرك.

لقد استحق الجانبين الاجتماعي والإنساني لهذه الحرب اهتمام الباحث. فرصد الهيئات الناشئة والناشطة عهدذاك، على اختلاف توجهاتها، كالإدارات الحزبية ومؤسسات المجتمع المدني والهيئات الدولية. وأظهر لقرائيه أن تجربة العمل الاجتماعي في أوقات الأزمات مثلاً عملي ومحسوس لإمكانية تسويق الإيرادات الحية والإمكانات المتواضعة في عمل خدماتي تطوعي ذي منفعة عامة يلتزم بخدمة الناس. فلا تقوته الصفة المزدوجة لعمل تلك الهيئات، فيذكر إيجابياتها في تنظيم الأوضاع الاجتماعية وامتصاص النقمة الشعبية، وفي المقابل، إقامة الميليشيات سلطة سياسية بديلة من الدولة ومؤسساتها. كما لم يفقه أن يشير إلى أن هذه "الإدارات المدنية" أتاحت لمنشئها

إدعاء مرجعية في الشأنين الاجتماعي والخدمي. فيقسم أنشطتها وفق التوزيع المناطقي/الطائفي، في المناطق المسيحية والإسلامية، ويعطي توصيفاً دقيقاً لتوجه كلّ منها.

ولكن العامل الأهم الذي استوقفه في المشهد الاجتماعي الإنساني في المناطق اللبنانية هو دينامية التحرك الشعبي والمؤسسي. فيتوقف عند ثمانية نماذج: الصليب الأحمر اللبناني، ومجلس كنائس الشرق الأوسط، وكاريتاس لبنان، وجهاز المتطوعين في الدفاع المدني، والدفاع المدني المقاصدي، ولحركة الإنمائية، والجبهة الموحدة لرأس بيروت، ومؤسسة عامل. والجزء الأخير من الفصل، خصه للمنظمات الإنسانية الدولية التي زادت من وتيرة عملها لتلبية الاحتياجات الطارئة كاللجنة الدولية للصليب الأحمر ومنظمة اليونيسيف.